مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف خاص
عن بيداغوجيا الإدماج

- الإصلاح التربوي وأوراش مدرسة المستقبل
- البرنامج الاستعجالي بعد سنة من التفعيل !!!
- مشكل العنف المدرسي في المغرب
- تنمية وتطوير مهارة القراءة وزيادة الاستيعاب
- المدرسة والتنشئة الاجتماعية
- العلاقات التربوية بين المعلم والمتعلم

العدد الخامس والأربعون - أكتوبر 2010

المدرسة والتنشئة الاجتماعية

نورالدين مشاط *

تعتبر المدرسة إحدى أهم وكالات التنشئة الاجتماعية المتخصصة، وذلك لتأثيرها العميق في بلورة شخصية المتعلم. حيث تعمل على تلقين العلم والمعرفة ونقل الثقافة من جيل إلى آخر. فهي تسعى إلى تحقيق نمو المتعلمين والمتعلمات جسميا وعقليا ووجدانيا واجتماعيا، كما تسعى إلى تربيتهم على مجموعة من المعايير والقيم والاتجاهات الاجتماعية، وتعدهم بشكل يؤهلهم للاندماج الإيجابي في المجتمع. إنها تصيغ رؤاهم وتصوراتهم وتطبع نظرتهم إلى المحيط من حولهم وتتعدى ذلك إلى رسم ملامح مستقبلهم. من هنا تبدو أهمية الانكباب على دراسة وتحليل دور المدرسة في التنشئة الاجتماعية للطفل المغربي، وطرح عدة تساؤلات نجملها فيما يلي:

ماذا نقصد بالمدرسة؟

ما هو دورها في التنشئة الاجتماعية للطفل؟

ما هي الأساليب التي نوظفها في تلك التنشئة؟

ما هي الآثار التي يمكن أن تحدثها في الناشئة؟

1 - مفهوم المدرسة:

يرجع أصل لفظ "مدرسة" إلى أصله اليوناني schole ويقصد به وقت الفراغ الذي يستغله الناس مع زملائهم في الترويح عن النفس أو للاستزادة من المعرفة. ثم تطور اللفظ ليشير "إلى التكوين الذي يعطى في شكل جماعي مؤسسي، أو إلى المكان الذي يتم فيه

التعليم أو اتباع مدرس معين. ويفيد اللفظ حاليا المؤسسة الاجتماعية التي توكل إليها مهمة التربية الحسية والفكرية والأخلاقية للأطفال والمراهقين في شكل يطابق متطلبات المكان والزمان." فهي إذن المؤسسة العمومية التي يعهد إليها المجتمع بدور التنشئة الاجتماعية لناشئته وفق منهاج وبرامج يحددهما حسب غاياته ومراميه. فهي نسق يعتمد التدرج في نقل المعارف والقيم موزعة على سنوات التمدرس والمواد المتكاملة فيما بينها بجرعات مضبوطة، ويمكن تصنيف المدرسة حسب نوعها، حجمها، طبيعتها التربوية، نظام الدراسة فيها، وجودة أدائها.

"إن المدرسة هي المحطة الرئيسية بعد البيت، التي فيها يهذب ويعدل القالب الذي صاغه البيت لشخصية الطفل بما توفره له من أنواع النشاطات المختلفة. وفي هذا المجتمع المدرسي فرص واسعة للتدريب والتعليم والتعامل مع الغير والتكيف الاجتماعي."

فالمدرسة هي المكان الذي يلج إليه الأطفال منذ صغرهم لتتشكل شخصيتهم من خلال برامجه وما يدور في فضائه من تفاعلات إلى أن يلتحقوا بسوق الشغل، وبالتالي فهي معمل يتم فيه تكوين للموارد البشرية من جهة وصهر النتوءات الاجتماعية من أجل التوحد حول أفكار وقيم المجتمع. والمدرسة، في نظر الإنسان العادي، يقصد بها المدرسة الابتدائية دون غيرها ، وهو ما تشير إليه العديد من القواميس العربية والأجنبية، إلا أن هذا اللفظ له في أدبيات التربية عدة استعمالات نجملها في ثلاثة تعاريف:

المدرسة كمفهوم مجرد: حيث نتحدث عن المدرسة بصورة عامة، ولا نعني بها أية مدرسة ولا أي مجتمع، مهتمين فقط بالقاسم المشترك بين المدارس.

المدرسة كمفهوم مرادف للنظام التربوي بالنسبة لوحدة سياسية معينة: هنا نتحدث عن نمط التعليم من حيث التوجهات والغايات وعلاقته بكل من النظام الاجتماعي والسياسي. كما أن مفهوم المدرسة في هذا المستوى من التعريف قد يحصر في الزمان والمكان بحيث نقول: "المدرسة المغربية ما بعد الحماية" و "مدرسة القرية" ، بالرغم من أننا نظل نتعامل معها على أساس أنها تشكل وحدة.

المدرسة كمفهوم مشخص واقعي أي كمؤسسة: وتدل هنا على مؤسسة بعينها كالمدرسة الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية.

2 ـ أدوار المدرسة في التنشئة الاجتماعية:

تقوم المدرسة بعدة وظائف تربوية اتجاه كل من الفرد والمجتمع بحيث تخدمهما معا وبشكل جدلي مترابط. فتنشئة التلاميذ على سلوك معين وتنمية اتجاهاتهم وعاداتهم وقيمهم لا يخدم الفرد فحسب، بل ينعكس على المجتمع من خلال علاقة هؤلاء معه. كما أن نقل الثقافة من جيل الى جيل، كوظيفة مجتمعية للمدرسة، هي في الأخير تجعل حركة هؤلاء داخل المجتمع انسيابية وتشعرهم بالانتماء إلى جماعة مما يقوي إحساسهم النفسي بالأمن.

تركز المقاربة النفسية، من خلال دراستها لتأثيرات المدرسة، على الفرد في حين تذهب المقاربة الاجتماعية إلى دراسة وظائف المدرسة في علاقتها مع المجتمع. وبغية رؤية متكاملة سنعتمد رؤية متوازنة تنظر إلى هذه الوظائف من زوايا مختلفة.

تبعا لما سبق ذكره فإن الدراسات التي انكبت على المدرسة، أشارت إلى عدة وظائف لها تمتد من الوظيفة التربوية حتى الوظيفة التكوينية مرورا بالوظيفة الحفاظية. وتتفرع عن كل وظيفة من هذه الوظائف وظائف صغرى سنتطرق إليها في حينها.

2 ـ 1 ـ الوظيفة الإعلامية والتكوينية:

تعمل المدرسة، من خلال برنامجها الأساسي programme de base، على تعليم الطفل القراءة والكتابة والحساب بوصفهم كفايات أساسية تكسب المتعلم انفتاحا على المحيط. فالقراءة ستفكك له رموزا كان يراها من حوله في المنزل والشارع على السواء ويتساءل عن كنهها. ستفتح له الباب للولوج إلى عالم الكبار كما يتمثله. أما الكتابة فستمكنه من نقل المعارف. في حين سيمكنه الحساب من العد. وهي كفايات ستيسر له التعامل مع المشاكل اليومية. وكلما امتلك الطفل هذه الآليات ـ الموارد، حسب بيداغوجيا الإدماج لكزافيي روجرز، وتحكم فيها إلا وانفتحت له آفاق وعوالم أخرى لينتقل من متعة المحسوس إلى متعة المجرد ومن الواقع المعاش إلى الخيال المبدع.

وتقوم المدرسة، من زاوية أخرى، "بتأسيس العقلانية والموضوعية أي تشكيل الفكر العلمي، ومن ثمة، فهي تتراوح بين المعرفة (إعلام) والفعل (تكوين) للتأثير بعمق في حياة المجتمع عبر المتعلمين". ومن هنا تنطلق المدرسة إلى حلقة أخرى في تشكيلها لعقولهم ألا وهي تنمية مهارات التفكير العليا جنبا إلى جنب مع إعطاء معارف في مختلف المجالات المدرسية، أي تنطلق بهم إلى استخدام الفهم والتطبيق والتحليل والتركيب والتقييم أثناء تعاملاتهم مع

المعرفة المقدمة، فيسائلوها ليقرؤوا أبعادها ولينقبوا عن أسبابها. وليستخدموا المنهج العامي في حل المشكلات التي تفرضها هذه المعارف، قصد الخروج من حالة اللاتوازن، كما يبين جون بياجي Piaget.

وبالإضافة إلى ما سبق، تعمل المدرسة على إكساب المتعلمين الكفايات الأساسية: الإستراتيجية والتواصلية والمنهجية والثقافية والتكنولوجية. فينطلق من تعرف الذات والتموقع في المكان إلى تعديل الاتجاهات والسلوكات، ومن إتقان اللغة إلى استعمال أنواع مختلفة من الخطاب مكيفة حسب المستهدفين والموضوع، ومن العمل داخل الفصل إلى التكوين الذاتي، ومن تنمية الرصيد الثقافي إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى، ومن القدرة على التحليل إلى تطوير المنتجات والإبداع.

وحينما تنحو المدرسة منحى ينمي الكفايات ويدمج المعارف ويغلب "وظيفة التكوين على وظيفة الإعلام (إعطاء معلومات مبتورة عن بعضها البعض)، فإنها تنحو لتحقيق ذلك بتقديمها تعليما كيفيا يتعامل مع المعرفة في نسقيتها، ووفق منظور واضح يربط المعرفة بالواقع، بل يعتبر المعرفة وسيلة لدراسة وفهم الواقع". ومن ثم يبرز إلى السطح الفكر النقدي الباحث عن التجديد والتغيير.

وفي إطار إعطاء هدف غائي متجدد لحياة التلميذ، جاءت التربية بالمشاريع. كما نظر لها جون ديوي. ليتعلم من خلالها كيفية تخطيط وتدبير مشاريعه الشخصية والجماعية وبلورتها وفق استراتيجيات محكمة ورؤى بعيدة أو قصيرة للمستقبل.

2 ـ 2. الوظيفة التربوية:

"يعد الانتقال من البيت إلى المدرسة حدثا مهما في الحياة النفسية للطفل له آثاره الكبيرة على شخصيته وخلقه وسلوكه الاجتماعي، فهو يضطر لأول مرة لأن يخضع لنظام عام ولسلطة تختلف عن سلطة الوالدين وأن يتخلى عن المركز المميز والرعاية الكبيرة التي كان يحضى بها داخل الأسرة". هنا تبدأ شخصيته بالتشكل فينمي علاقات مع الأقران ويتعلم من خلالها قيما عديدة: كاحترام الآخر وحب الحرية والتضامن والكرامة والتضحية والمواطنة. وهكذا يتحرر شيئا فشيئا من التمركز الكبير حول الذات إلى مشاركة الآخر والتفاعل معه.

تعمل المدرسة، من خلال المعارف والقيم والمعايير التي تروج لها، على نقل الثقافة من جيل الى جيل فهى تقوم بعملية تبسيط التراث المعرفي ونقله من جيل الاباء الى جيل الابناء

بما يتناسب مع مراحل نموهم واستعداداتهم وقدراتهم وميولهم. "حيث يتدرج الطفل في تعلمه من البسيط إلى المركب، ومن السهل إلى الصعب، ومن المحسوس إلى المجرد. إن الحياة المدنية المعقدة، ونظمها وعلاقاتها المتداخلة، يشق على الطفل استيعابها والمساهمة فيها؛ ومن تم يشعر الطفل بالحيرة والضياع، إن هو ترك بمفرده في خضم الحياة. لذلك فإن المدرسة كمؤسسة تربوية متخصصة، تشكل أول فضاء بعد الأسرة، يقوم بتزويد الطفل بالبيئة الاجتماعية المبسطة، فهي تنتقي الملامح الأساسية للبيئة الاجتماعية الخارجية، وتتمثلها في بيئتها المدرسية، كي يتمكن التلاميذ من الاستجابة لها والتفاعل معها".

2ـ 3ـ الوظيفة الاجتماعية:

وهكذا، نجد أن المدرسة غدت مجتمعا مصغرا (ميكرو. مجتمع)، شبيهة بالمجتمع الكبير (الماكرو)، ذلك أنها تضم العديد من التنظيمات الاجتماعية المتفاعلة فيما بينها والأنشطة والعلاقات الإنسانية. هذا بالإضافة إلى كونها تخضع هي نفسها إلى نظام وقوانين تهدف إلى حفظ الأمن وتنظيم العلاقات الآنفة الذكر.

تقوم المدرسة بوظيفة حفاظية، أي تحافظ على تراث المجتمع وتقاليده بتمريره عبر الأجيال المتلاحقة من خلال تحويل الأفراد من كائنات عضوية إلى كائنات اجتماعية. وهي بذلك تسهر على تماسك بنية المجتمع وتدعم الروابط الاجتماعية.

لكنها، ومن خلال ما سبق تُتَّهم بأنها تقوم بإعادة الإنتاج، أي تحافظ على تركة الماضي. فهي "حسب فيلارس Villars (...) تحاول نقل تراث الماضي إلى الجيل الحاضر بتبسيطه وانتقائه"، غير أنه ونظرا للعقلية الاستبدادية التي تحاول تكريس الواقع كحالة دائمة قصد الحفاظ على الامتيازات، فإن هذه الوظيفة سرعان ما تصبح وظيفة محافظة تتعامل مع الماضي كقيمة في حد ذاتها وبعقلية تقديس. فتصبح المدرسة مؤسسة لإعادة الإنتاج بعبارة بورديو وباسرون Bourdieu-Passeron . ففي رأيهما يسهم التعليم في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم، فيساعد بذلك على تثبيته واستمراره"، أي يعيد إنتاج التمييز الاجتماعي وعلاقات النفوذ الطبقي فيه من خلال التسليع التربوي حتى اعتبر بعض التربويين أن اللامساواة في المجتمع إحدى نتائج التمييز التربوي.

3 ـ أبرز أساليب التنشئة الاجتماعية للمدرسة:

تأثيرات المدرسة في التنشئة الاجتماعية، كما أشرنا، عديدة ولكي نفهمها، لابد من أن نتعرف على أبرز الأساليب المتبعة في تنظيم العلاقات ما بين أفراد المجتمع المدرسي، والتي تتعدد وتتباين حسب أنماط وأشكال السلطة التعليمية السائدة. ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع:

3 ـ 1 ـ الأسلوب الديكتاتوري:

يتمثل هذا النوع في تركيز السلطة بين يدي الأستاذ، الذي يعتبر نفسه مالك المعرفة في الفصل، وبالتالي تسود علاقة عمودية بينه وبين تلاميذه حيث تغيب المرونة، وينتفي الحوار، ويشيع جو من الصمت المصطنع، بل والخوف من جرح المشاعر أو استعمال العنف مما ينعكس انعكاسا شديدا على نفسية متعلميه. ويؤدي هذا إلى نتائج سلبية بالنسبة للعملية التعليمية التعلمية نجملها، حسب ما أشارت إليه دراسات عديدة أجريت في الوطن العربي، فيما يلي:

ـ عدم تمتع التلاميذ بمهارات التساؤل والمناظرة.

ـ غضب الأساتذة، وعدم ارتياحهم بسبب اختلاف الرأي.

ـ عدم تمكن الطلاب من شرح وجهة نظرهم بصورة متكاملة ومن دون مقاطعة.

ـ شح المناقشة التي تكاد تنحصر في مادة الدرس بحيث تغيب مواقف الطلاب

ـ ارتفاع نسبة كلام الأستاذ، وضعف المبادرة عند التلاميذ.

ـ قلة التفاعل بين التلاميذ أنفسهم.

ولا ينحصر هذا الأسلوب في مجال القسم وحده، وإنما يمتد ليشمل المدرسة برمتها والعلاقات المتواجدة فيها. فانضباط التلاميذ ومحافظتهم على النظام غاية يمكن اللجوء إلى العقاب البدني من أجل توفيرها. وهو ما يعكس النظرة السطحية للمشكلات السلوكية السائدة في الوسط المدرسي وبالتالي تأتي العلاجات بنتائج عكسية تماما:

ـ خوف شديد من الوسط الدراسي أو ما يصطلح عليه بفوبيا المدرسة.

ـ ظهور سلوكات مقاومة متمردة رافضة للانضباط، قد تصل إلى حالة سيكو- مرضية

تمارس العنف والعدوانية على الذات أو الآخر

- ظهور حالات انفعالية غير مرغوبة كالصراخ والبكاء والهلع التي قد تصل إلى حد الهستيريا.

- الانكفاء حول الذات والخنوع والخضوع للذل.

- الشعور بالنقص وعدم الثقة بالذات، وبالتالي ضمور الإبداع.

- الفرار من المدرسة.

ولقد أثبت هذا الأسلوب فشله من خلال ما خرجه لنا من أجيال ضعيفة التحصيل وغير قادرة على المبادرة. "وهكذا تتبدد المواقف التربوية السليمة، (...) ويغيب الفكر الإبداعي والأسلوب العلمي، القائم على التفاعل الإيجابي، والتعاون النشيط على مستوى البحث والتجريب وحل المشكل."

3 ـ 2 ـ الأسلوب الفوضوي:

وهو أسلوب يدعي الحرية المطلقة، في حين لا يعكس إلا الفوضى في معالجاته للمشاكل التي تعج بها الساحة التعليمية. ومن عيوبه أنه يكسر الالتزام بالضوابط والتوجيهات المساعدة على حصول التعلمات. فشيوع النزوات الفردية والمواقف والاتجاهات اللامسؤولة تؤدي إلى تكون جماعات متطاحنة فيما بينها فينتفي الأمن بالمدرسة عموما والهدوء في الأقسام والمكتبات مما ينعكس انعكاسا شديدا على البحث والتفكير بالنسبة للمتعلم، كما ينعكس على جو تيسير التعلم وتسيير الدرس بالنسبة للأستاذ. وبالتالي تؤدي الحرية المطلقة هذه إلى عدم انتظام الدراسة بالنسبة للتلميذ بحيث تكثر التغيبات. هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فتنعكس الصورة سلبا وتفقد المدرسة كنتيجة مكانتها بحيث ينظر إليها كوكر لتخريج أفواج من الشواذ والمنحرفين العديمي المسؤولية. فكيف لهؤلاء أن يحلوا مشكلات المجتمع؟ كيف لهم أن يخططوا ويدبروا المشاريع؟ وكيف لهم أن يساهموا في البحث العلمي والإبداع؟

3ـ2ـ الأسلوب الديموقراطي:

وهو أسلوب مدارس النجاح والمدارس الذكية حيث تسود ديناميكية إيجابية وعطاء تربوي ما بين أفراد المدرسة. فالشعور بالمسؤولية اتجاه الجماعة من خلال تقدير قيمة كل فرد فيها مما يتيح له القدرة على التعبير عن آرائه، وتنمية الملكة النقدية، ودقة الملاحظة. كما يتيح له هذا الأسلوب الكشف عن قدراته الإبداعية وتنميتها عن طريق الاحتكاك مع باقي أفراد المجموعة ويعطيه فرصة للنمو الفردي والاجتماعي. ومن وسائل هذا الأسلوب في نهجه نجد:

المساواة: حيث لا تمييز في التعامل ما بين الأفراد لا على أساس طبقي أو عرقي أو جنسي أو ديني أو ثقافي أو اللون. ومن ثم تسود علاقة متماسكة بين أفراد جماعة المدرسة، مما يسمح بظهور طاقات مبدعة.

الحرية المسؤولة: وهو المناخ الذي في ظله يعبر الفرد عن أفكاره، ويقوم وينتقد المسار التعليمي والأداء الإداري على حد سواء. كما يبدي تطلعاته ويعبر عن انتظاراته.

التخطيط التشاركي: فهو يشرك المتعلم في "تخطيط مراحل العمل وتوزيع المسؤوليات والالتزامات المتعلقة بنشاط التعلم".

الإبداع في التعلم والتنشيط: بناء على ما سبق، تجد الاقتراحات الوجيهة والأفكار المبدعة طريقها إلى التنفيذ. فلا مجال للجمود على نهج لا يعطي جودة. كما تتعدد أساليب التنشيط التعلمي بحيث تغدو العملية التعليمية أكثر إثارة وتشويقا.

إن هذا النهج يجيب عن تساؤلات عادة ما يثيرها المخططون للجودة والقيادة الإيجابية من أمثال ستيفن كوفي Covey. وهي تساؤلات تعتبر كمؤشرات على نجاح مهمة المدرسة أو فشلها:

- كيف نشجع الرغبة في التغيير والارتقاء دون أن نخلق المزيد من السلبيات أكثر من الإيجابيات؟

- كيف نصبح أعضاء حيويين لفريق مؤسس على الاحترام المتبادل والتقدير للتنوع والتعددية؟

ـ من أين نبدأ، وكيف نقوي الدافعية للمزيد من التعلم والارتقاء؟

ـ كيف نستشعر المسؤولية ونجعل الآخرين يشعرون بها وذلك بإعطائهم الثقة في أنفسهم والكفاية اللازمة لحل المشكلات والاستفادة من الظروف الملائمة دون أن نخاف من تزعمهم الأمر وحدهم؟

هذه الأسئلة وغيرها حري بنا أن نتأملها لنسائل عن سبب نجاح أو إخفاق المدرسة في الوظيفة المرجوة من التنشئة الاجتماعية.